الادب في البحرين

« في فاتحة القرن الحادي عشر »

— ٢ —

(أسلوبه) ٠ — ليس لشاعر الخط أسلوب خاص في صناعة الشعر بل كان ناسجاً فيها على منوال من تقدمه من فحول الشعراء واعظم من حذا حذوه منهم هو الشريف الرضي فارتفعت باحتذائه مرتبة شعر ابي البحر عن شعراء البحرين ، ولكن الشريف لبث في سمائه محلقاً صافاً ، وابو البحر تحته مسفاً داقاً ٠ والمقابلة بين الشعرين لا تحشم صاحبها الا عناء المقابلة بين الخشاب ودرّ البحرين ، وهو يؤثر الجزالة في القول على السهولة والادباء من اهل بلده يرون ان فخامة الشعر لا تكون الا في الجزل ، وان الرقة في الرقة والكلام السهل ، على ان لكل منهما مقاماً معلوماً ، وهذا الشاعر الغنوي يعرب عن رأيه في قصيدة لامية لابي البحر قائلاً : « ونحى فيها منحى الرقة وتساهل في النظم لغرض في نفسه والا فمذهبه في النظم على خلاف هذا » وقد اكثر في شعره من ذكر بلاد البحرين ومنتجاتها من درّ وتمر وغير ذلك مما هو طابع على شعره يعرف بها تاليه ، ولم يعلم قائله بانه شعر بحراني لا شامي ولا صنعاني وذلك من محاسن شعره ٠ والبيان العربي وان كان واحداً الا انه يستعذب ان يكون لكل قطر بيان ذو طابع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خاص كما ان الاذن تستملح لهجات الاقطار العربية المختلفة ولا يخرجها ذلك عن كونها لغة عربية واحدة ٠

لقد بلغ فساد البيان في البحرين مبلغاً جعل مثل الشريف ماجد وهو من كبار أدباء البحرين اذا سمع قصيدة جيدة لابي البحر يلحقها بشعر البحتري وهو امة في الشعر وحده قال الغنوي راويته بعد ان أنشد الشريف ماجداً قصيدته التي مطلعها :

(سلام يغادي جوكم و يراوحه ونشر ثناء تنتحيكم روائحه)

ان الشريف العلامة أعجب بها وألحقها بشعر ابي عبادة الوليد بن ابي عبيدة البحتري وان هذه القصيدة ليست مما يفرق بينها وبين اشعار ابي البحر العادية وليس احد في عصرنا ممن يشق غبار ابي البحر في جودة السبك وجزالة اللفظ وبكارة المعنى وسلامة النظم ٠

احتذى ابو البحر الرضي في داليته التي رثى بها الصابي حينما اراد ان يرثي قاضي القضاة ابا جعفر عبد الرؤوف العلوي الموسوي للسنة السادسة بعد الالف ولنقابل بين المطلعين قال الرضي ٠

(اعلمت من حملوا على الاعواد ارأيت كيف خبا ضياء النادي)

فقال الخطي :

(كف الحمام وترت اي جواد ورجعت ظافرة باي مراد)

فلو تلا المرء بيت الخطي وحده لقال لا بأس به ولكنه يتضاءل في عينيه اذا ما قرنه بقول الرضي ، وقد اراد ابو البحر ان يعارض المطلع في قصيدته فاستعمل جميع الفاظ الصدر وبعضها في العجز قائلاً :

(اعلمت من حملوا على اعوادهم المجد قد حملوا على الاعواد)

وقال الرضي :

(ثكلتك ارض لم تلد لك ثانياً اني ومثلك معوز الميلاد)

فقال الخطي :

(هيهات ان ولدت له الدنيا اخاً اني وقد عقمت عن الميلاد)

وقد بالغ في هذا الاحتذاء حتى كأنه والسرقة سواء ٠ قال الرضي :

(فلصت اظلة كل فضل بعده وأمر مشربها على الوراد)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقال الخطي مغيراً على بيت شريفه :

(نضبت موارد كل خير بعده فالورد معتلٌّ على الوُرّاد)

وقال الرضي :

(عمري لقد اغمدت منك مهنداً في الترب كان مخرق الاغماد)

فأخذ الخطي هذا المعنى وتصرف بالالفاظ وقال :

(ومهنداً ابلى الغمود زلاقةً فغدا التراب له من الاغماد)

وقد يغض الطرف عن سرقة الشاعر اذا احسن استعمال المسروق وانست حلاوة نسجه ولطافة نهجه والزيادة في معناه المتممة أسلوب البيت المسلوب ، ولكن صاحبنا ابا البحر انحط في ذلك عن الرضي وكرّر الاغماد فأساء وما أجاد .

ان أئمة البيان هم الالى ينهجون في الصناعتين المناهج القويمة ويمتازون عما سواهم باساليب مبتكرة مستملحة واما المقلدون فيتابعون أئمتهم في مناهجهم وينحون مناحيهم صنع الوأواء بالاقتداء بالمتنبي . وقد اعتاد الشريف الرضي في قصائد حماسته وفخره ان يصف شجاعة صحبه وصبرهم على المكاره وخشونة العيش وتوسد اعضاد المطايا وملاقاة المنايا كقوله مثلاً :

(ما كنت ارغب عن هيجاء تقذف بي هام المروري واعناق الشناخيب)

(في فتية هجروا الاوطان واصطنعوا ايدي المطايا بادلاج وتأويب)

(من كل اشعث ملتاث اللثام له لحظ تكرره اجفان مدؤب)

فنحى الخطي هذا المنحى بقوله :

(عدوى لو العادي عليه سوى الردى قسماً لكنت عليه اول عادي)

(في فتية ضمنت لهم عزماتهم ريّ القنا في كل يوم جلاد)

(طالوا بايديهم عوالي سمرهم فغنوا بهن عن القنا المياد)

ومن طرائق الجاهلية في التعبير عن الفواجع ان يقولوا مثلاً : ما ادماء كانت ترعى وخلفها خشفها فاختطفه اطلس غادر باوجع من الشاعر مهجة يوم بان الخليط ، ومنها القسم بالابل الراقصات اشباه الحنايا الى غير ذلك مما احتذاه الرضي واجاد فيه لشدة اسر كلامه وجزالته وذلك كقوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(حلفت بها كقسي النباع تحسب اعناقهن السهاما)

والخطي يقول :

(اما والراقصات كأن وحشاً تندّ بما حملن من الرجال)

يلجأ الى هذه الطريقة اليوم من ينحت من صخر و ينقطع به امد الكلام وتعوزه المعاني الجليلة واما من يغرف من بحر كشوقي ومعروف واتباع المدرسة الادبية الحديثة فقد اقتصروا على التعبير عن عواطفهم الثائرة وتناول الموضوعات والحوادث الاجتماعية التي تحدق بامتهم فهم الذائدون عن حياضها والمتعاونون على إنهاضها .

قال عشيره الغنوي : وكان كثيراً ما يعجبه شعر ابي نواس في الخمريات فربما تعرض لمجاراته فمنه ما قاله في سنة الف وهو غلام مجيزاً له :

(دع عنك لومي فان اللوم اغراء)

(وليلة بت تحلو لي حنادسها مدامة كدم المذبوح حمراء)

(كالنار والماء ان شبت وان لمست وفي الحقيقة لا نار ولا ماء)

(شمطاء عذراء في دن وفي قدح فاعجب لها وهي شمطاء وعذراء)

(كأنها في الدجى والزق يقذفها برق له من خلال البرق لألاء)

الى ان وصف ساقيها الشادن فقال :

(له محلان في قلبي وفي بصري سواد هذا ومن ذاك السويداء)

(وشابها نطفة من فيه صافية كالراح فهي مع الصهباء صهباء)

(لحا على شربها قوم وما علموا يا ويحهم ، ان ذاك اللوم اغراء)

(عيوب شعره) — منها التكرار المعنوي وعدم التصرف بالتعابير والتفنن في ايراد المعنى الواحد المقصود بصور شتى فمن ذلك قوله :

(لا اغب الوزيرَ سعد يناجيـ ـه به كر غدوة ورواحِ)

فقد كرر هذا المعنى الدال بتعبير الغدوة والرواح على الدوام والاستمرار في مواطن مختلفة منها قوله :

(فصافحه عني على بعد داره بمدحي كفا غدوةٍ واصيلِ)

وختم رائيته بصاحب الزمان بقوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(ولا زال تسليم المهيمن واصلاً اليك به سيرا عشي وإبكار)

ومن تكراره المعنوي قوله في بعض صحابته :

(لأعوزَ ان يأتي اب بشبيهه وان كثر الابناء يوماً وأنجبا)

وقوله من قصيدة أخرى :

(لاعوز ان يأتي اب بشبيهه سماحة نفس في طهارة مولد)

وفي هذا الكلام فضلاً عن التكرير المعنوي احالة يستنكرها العقل الرجيح ، وينبو عنها الطبع الصحيح .

ومنها التمدح والاستئثار الادبي . وقد قيل كل حق يجمل ذكره الا مدح المرء نفسه . والشعر الرائع تذهب ببهجته الدعوى وان كانت صحيحة ، هذا بالنظر الى قضاء العقل وروح زماننا ، واما بالنسبة الى زمن ابي البحر والذي تقدمه فان التمدح بالشعر كان ينتظم في سلك الفخر ، والشاعر المفتون بشعره يعدّ الشعر الفاخر من المفاخر وكان اجدر به ان يترك الحكم على شعره لغيره فلكل زمان بيان ، ومن تمدحه قوله :

(فيا ابن محمد بن نقيّ اسمع ثناء مبرز في النظم فرد)

(سحائب [1] ان تزر ناديك تقلع مواطرهن عن أحواض شهد)

(تشاركني الورى في الشعر ظلماً على اني المبرز فيه وحدي)

ومنها قوله :

(مدائح لم يسمع بها فكر شاعر ولا افترّ عن أمثالها فم منشد)

(انا الكوكب الوقاد والعلم الذي به كل من غمت مساعيه يهتدي)

(متى أدعُ عاصي القول يأتي مطاوعا وان يدع غيري طائع القول يقعد)

وقوله في محل آخر :

(وعدّ عن اسماعك شعر غيري فاين حصى الطريق من اللآلي)

(مكان قريض غيري من قريضي مكان النغل من ولد الحلال)

يقول رحمه الله هذا وقد قال قبل هذين البيتين :

(١) الصواب السحب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(« نعز » لو رقي يعقوب منه ببيت او أقل لظل «سالي»)

وقد بينا من عيوب شعر الخطي انه بالغ في الاحتذاء ، حتى كان والسرقة سواء ، وقد يسرق معتدياً لا محتذياً فمن ذلك قوله والسرقة فيه مبينة لا تحتاج الى بينة :

(يبقى لنا الجود ما بقوا فمتى قضوا قضى الجود بعدهم نحبا)

اخذه من قول : في رثاء معن بن زائدة :

(ولما قضى معن مضى الجود وانقضى واصبح عرنين المكارم أجدعا)

وقوله : (وتحبس نفسها ابداً عليه عكوف المرضعات على الفصال)

من قول الشاعر : (نزلنا ارضه فحنا علينا حنو المرضعات على اليتيم)

واما قوله : (ملكته في الهوى قلبي فصار له عبداً مطيعاً وفيما شاء يسلكه)

(ثم انثني معرضاً والقلب في يده هلا جفاني وقلبي كنت املكه)

فهو مسروق من قول سيف الدولة بن حمدان :

(واعرض لما صار قلبي بكفه فهلا جفاني حين كان لي القلب)

وقد تناول قوله :

(لقد تضاءل حتى لو قذفت به في مقلة ما أحسته مآقيها)

من قول الوزير ابن العميد :

(لو ان ما ابقيت من جسمي قذىً في العين لم يمنع من الاغفاء)

وتناول منه ايضاً قوله :

(وعبرة لو دُعي نوح ليسلكها بفلكه قال بسم الله مجريها)

(ومقلة الفت فرط السهاد فلو رد الرقاد عليها كاد يؤذيها)

وشبيه به بمعناه واحالته قول المتنبي :

(اراك ظننت السلك جسمي فعقته عليك بدر عن لقاء الترائب)

(ولو قلم القيت في شق رأسه من السقم ماغيرت من خط كاتب)

وكأن الخطي غار من بيتي السيد علي في الخمر :

(رقت فلولا الكأس لم تبصر لها جسماً ولم تلمس براحة لامس)

(فكأنها عند المزاج لطافة وهم يخيله توهم هاجس)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فأغار عليهما قائلاً :

(ما ذا على الطير اذ أبلى الضنى جسدي نخف لو حملتني في خوافيها)
(ان تقعد الطير عن حملي لكم وسرت ريح الصبا فاطلبوني في مساريها)

وفي الديوان من عيوب لغة ونحو واملاء ونسخ ووزن وضرورات له عنها مندوحة فمن ذلك جمعه قوس على قيسان في قوله :

(نواحل كالقيسان مما يعسفو[1] بها كل تيهاء المعالم فدفد)

ومنها استعماله غوغاء بمعنى ضوضاء على غير الافصح في قوله :

(تلك النوادب لا يفيق السمع من غوغاء رنتها ولا ضوضائها)

ومنها استعماله تغاورها بمعنى أغار عليها في قوله :

(كأن قلوبنا لما استقلت ركابكم ضحى ودنى الوداع)
(فراخ قطاً تخطفها بزاة وعرج ظبي تغاورها سباع)

والحال انه يقال : تغاوروا اذا أغار بعضهم على بعض على سبيل المشاركة ومن اين لعرج الظباء ان تغير على السباع ، الا ان يكون الاصل تعاورها بالعين المهملة فمسخها النسخ ، وفي البيت الاول غلطتان املائيتان : ركابكم والصواب ركائبكم لان فعلها المجرد ليس أجوف فيكتب الجمع بالياء نحو مسايل جمع مسيل ، ودنا واوية تكتب بالالف ، والظبا تكتب ايضاً بالالف لا بالمقصورة وهي التي يأخذونها (الظبى جمع ظُبة اي حد السيف) ويحلون الحُبي حين يبلغ السيل الزبى .

« البقية للآتي »

ابو قبيس : عزالدين التنوخي
عضوالمجمع العلمي العربي بدمشق
والمجمع العلمي العربي ببغداد

(١) لعلها تعسفوا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net